

## دراسة أسباب تأخر الشرق الإسلامي من منظور الزهاوي

مهرةلى يزدان پناه\*

### الملخص

تميز جميل صدقي الزهاوي، بشخصية مميزة، علمية وفلسفية وسياسية وأدبية. يبدو من خلال أشعاره، كعالم اجتماع متضلع يعرف الدهاليز المظلمة والمتداخلة من شؤون المجتمع الإسلامي. فاضطلع بتسليط الأضواء على شتى الأسباب المؤثرة في انحطاط الشرق في عصره، دون أن يترك كل صغيرة وكبيرة منها. وكثيراً ما تتردد كلمة الشرق، أو ما يلائمها في أشعاره. فالجتمتع الإسلامي، عنده، رغم ماضيه الخافل بالتقدم والازدهار، انحدر إلى الحضيض وإلى أشقى البلاد تخلفاً. هذه الدراسة باعتمادها على المنهج الوصفي - التحليلي، تسعى إلى دراسة الأسباب التي أخرجت الشرق الإسلامي عند الزهاوي.

الكلمات الرئيسية: أسباب التخلف، الشرق الإسلامي، الشعوب، الحكومات، الزهاوي.

### ١. المقدمة

نظرة عابرة إلى تاريخ الإسلام تكشف لنا أن الخلفاء الراشدين وبني أمية تمكنوا من توسيع دائرة الإسلام الجغرافية. وما إن جلس بنو العباس على العرش حتى تحوّل مقرّ الخلافة إلى

\* أستاذ مساعد في قسم اللغة الفارسية وأدائها جامعة آزاد الإسلامية بقائم شهر

dryzdanpanah1379@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٥/٢٧، تاريخ القبول: ١٣٩٣/٨/١٧

بغداد وبدأ العصر الذهبي للإسلام بفضل ما حصلت الدولة عليه من الثروات الهائلة وكذلك لأجل البيئة المتعددة الثقافات والمائلة إلى العلم والترجمة، مبتدئاً بالمنصور (١٥٨-١٣٦ هـ.ق) لإشعاله الشرارة الأولى لهذه النهضة التي بلغت غايتها في عهد المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ.ق) لتحيضه على العلم. وعندما جاء المتوكل (٢٣٢-٢٤٧ هـ.ق) بدأ — وللأسف — المنحني السلبي لنمو الحضارة الإسلامية وذلك لتخليه عن خطوة العلم والتعقل. وعلى أي حال، كما يعترف الكبار من علماء الإسلام وغيرهم، حدث للمسلمين ازدهار وتقدم علمي في القرن الأول من العصر العباسي؛ وإن كان غير مستقر. والمؤرخ رينان البريطاني يعتقد أن ازدهار العرب لم يكن حاصل ترجمتهم فحسب بل نتيجة لتسرب الفكر العربي (كالين، ١٣٧١: ٢٨٤) ويقول جورج سارتون: «إن كان المجتمع البشري في ازدهاره العلمي القديم مديناً ليونان (غرب) فإن رقيّه في القرون الوسطى رهين للمساعي التي بذلها المسلمون (الشرق)» (١٣٥٣: ٤١). يبدو — وللأسف الكبير — أن العالم الإسلامي بعد شيئاً فشيئاً عن موكب العلم والحضارة وفقد عزمه وإرادته للتقدم. لايسع المجال دراسة الأسباب هنا. فمنذ ذلك الحين فصاعداً انقلب الدهر ظهراً على بطن فصار الشرق الإسلامي يرمي مرعى الغرب كأنه نام ملء جفنه دون أن يفيق أو ينتبه.

الهدف الرئيس من هذا البحث، هو دراسة أسباب تأخر الشرق الإسلامي من منظور الزهاوي. إذن، الأسئلة المحورية في هذه الدراسة هي كما يلي: ١. ما هو رأي الزهاوي عن جغرافية سياسية تمثل الشرق الإسلامي؟ ٢. ما هو موقف الزهاوي تجاه تخلف الشرق الإسلامي؟ ٣. ما هي الأسباب التي أخرت الشرق الإسلامي عند الزهاوي؟

ولد الزهاوي سنة ١٨٦٣ ببغداد وتعرف على اللغات العربية، الفارسية والتركية خبير المعرفة (يزدانپناه، ٢٠١٢: ٤٩). أكب الشاعر على القراءة بصورة دؤوبة، وتمكن من خلالها أن يحصل على كثر زاجر من الفكر والأدب. أصبح الزهاوي عضواً لمجلس المعارف في ولاية بغداد سنة ١٨٨٦م؛ وصار نائباً لأبناء بغداد. شارك الزهاوي، في مؤتمر الفردوسي الذي أقيم بطهران، ومن خلال هذا المؤتمر، كان له مباحثات ومناقشات كثيرة مع صديقه الحميم ملك الشعراء بهار (الشهرستاني، ١٣٥٧: ٥٥) وفي فترة الاجتياح

البريطاني للعراق، تمّ تعيينه عضواً لمجلس المعارف ببغداد ورئيساً للجنة ترجمة القوانين العثمانيّة. وكان من الأعضاء الدائمة لمجلس الشيوخ والأعيان في العراق، إلى أن انتقل إلى عرش باريه سنة ١٩٣٦ (الفاخوري، ١٩٨٦: ٤١٣). له آثار وكتابات في مجالات مختلفة منها: ١. رباعيّات الحّيّام، ترجمة شعرية ونثرية لرباعيّات الحّيّام، ٢. ستة دواوين شعريّة.

### ١.١ خلفيّة البحث

لا بأس أن يشار هنا إلى قضية الإستشراق (orientalism) التي هي بغضّ النظر عن أهدافها العلميّة أو السياسيّة أو الدينيّة، دراسة علميّة شاملة، قام بها الغرب، حول القضايا المختلفة في الشرق (سعيد، ١٣٧٧: ٩٥). فاشتهر الكثير من المستشرقين بآثارهم عن الشرق. سبق للباحثين أو المعنيين بالشرق أيضاً، أن عرضوا لأسباب تخلف الشرق. ولكن بالنسبة للزهاوي فلم يتمّ بحث مستقلّ لدراسة ما تهدف إليها المقالة حسيماً أعلم. يذكر كنموذج ما يلي:

١. كتب شهريار نيازي، زهرا جهانگيري اصفهاني وآمنه جهانگيري اصفهاني مقالة عن «المرأة في شعر جميل صدقي الزهاوي». درس كتابها قضية المرأة العربيّة التي صمدت أمام الاستبداد السائد، طلباً لحقوقها المنتهكة عبر القرون العديدة. كما أشاروا إلى الظروف الاجتماعيّة المتخلّفة في العراق (نيازي، ١٣٨٦: ١٥٥-١٧٢).

٢. درس حسين ناظري ومحمودآبادي، في مقالة لهما، باسم «الباثولوجيا الاجتماعيّة من منظور الزهاوي»، المواقف السياسيّة والاجتماعيّة عند هذا الشاعر. وتطرّقا فيها إلى الصدمات المختلفة التي يعاني منها المجتمع العراقي في عصر الشاعر، خاصّة قضية التعليم وتحرير المرأة (ناظري، ١٣٩٠: ١١٩-١٥٠).

٣. دوّنت قاسمي فرد وميرقادر، مقالة تحمل عنوان «دراسة مقارنة لصورة المرأة في شعر جميل صدقي الزهاوي وملك الشعراء بهار». تدرس المقالة منزلة المرأة في العراق وإيران طوال القرن التاسع عشر والعشرين من خلال أشعارهما. وتذكر في الخاتمة، العديد من وجوهات النظر المشتركة بينهما (قاسمي فر، ١٣٩٠: ٦٥-٨٨).

## ٢. جغرافية الشرق الإسلامي من منظور الزهاوي

تعني كلمة «orient» لغة: الشرق، المشرق. كذلك «east»: شرقاً، شرقيّ، الشرق، المشرق البلدان الواقعة شرقيّ أوربة (البلبلكيّ، ١٩٩٢: ٦٣٨، ٣٠٢) وكانت مساحة الشرق عند المستشرقين تختلف عبر تأريخ الاستشراق الطويل، بين الشرق الأوسط والأقصى والأدنى والبلدان الإسلاميّة وغير الإسلاميّة. ولكن أحدث حدوده الجغرافيّة هي الجغرافيا الدينيّة فتقتصر على البلدان الشرقيّة المسلمة فقط. والتي نحن بصددده في هذا البحث المتواضع.

الظروف السائدة في البلدان الإسلاميّة كانت لا يختلف البعض عن البعض في عصر الشاعر. تردّد كلمات مثل: الشرق، العراق، بغداد في أشعاره كثيراً. وليس من الغامض لدارس أشعاره لكي يدرك أنّه يقصد الشرق الإسلاميّ مستخدماً ما سيأتي من المفردات: الشرق، الناس، الوري، العراق، القوم، العرب، بغداد، نحن و... كما كثر ما يصرّح باسم دولة عربيّة وإسلاميّة منها إيران.

## ٣. هل الشرق متخلف من منظور الزهاوي؟

ينمّ شعر الشاعر عن تخلف كبير في الشرق وانحطاط ساقط في مهواة الشقاء ويكون الأمر على مردّ لسانه. وإثّه في الأغلب والأعمّ، عندما يتصدّى لتأخر الشرق يذكر الغرب مقارناً بينهما ضمناً أو صراحةً. فالغرب عنده سعيد برقيّه ولكن الشرق رغم ماضيه الحافل بالتقدّم والازدهار انحدر إلى الحضيض وأشقى البلاد تخلفاً.

وَسِعَ الْغَرْبَ وَمَا يَسِعُ الشَّرْقَ رَقِيٌّ  
فَإِذَا الْغَرْبُ سَعِيدٌ وَإِذَا الشَّرْقُ شَقِيٌّ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٩٦)

إِنَّ أَشَقَى الْبِلَادِ مَا كَانَ يَحْرِي  
وَفِي سَالِفِ الزَّمَانِ بِلَادٌ  
فِي أَرْضِيهِ دَجْلَةٌ وَالْفِرَاتُ  
عَامِرَاتُ الْأَكْنَفِ مُرْتَقِيَاتُ

(المصدر نفسه: ٨١)

#### ٤. أسباب تأخر الشرق عند الزهاوي

الزهاوي يبدو من خلال أشعاره كعالم اجتماع متضلع يعرف الدهاليز المظلمة والمتداخلة من شؤون الشرق الإسلامي خاصة العراق؛ فاضطلع بتسليط الأضواء على شتى العوامل الاجتماعية المؤثرة في انحطاط الشرق الإسلامي دون أن يترك كل صغيرة وكبيرة منها. دفعني استقراء أشعاره التي هي مرآة صافية لأفكاره السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، أن أصنف أسباب تأخر الشرق عنده إلى خمسة عوامل بصورة الأعم وهي: ١. الشعوب، ٢. الدول، ٣. مكافحة العلوم، ٤. الجهل الديني، ٥. التدخل الأجنبي.

#### ١.٤ الشعوب

أثبتت إنجازات البشرية علماً وتجربة أن للشعوب في رقيها دوراً ممتازاً لا يحاذيه ولا يجاربه شيء. كما أيدها الفكر الديني القرآني «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد: ١١). وإذا وافق المرء أن الأصل الإسلامي الراقى أي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» بداءة بدء يرمي إلى مسؤولية الشعوب تجاه الحكام وأن حده الصارم لا يهدف إلّا إلى القادة المسيطرين على مصائر الشعوب أولاً؛ إذ القدرة والثروة أكثر تأثيراً في دفع الرجل للفساد، ثم بعد ذلك يقصد الأقرباء والمعاريف. فبناء على هذا لا يمكن أن ينكر أحد دور الشعب في المجتمع. فمن البديهي، إذا ترك شعب أعباء هذه المسؤولية الهامة فكان المقصد هو الخراب. هذا ما صرح به عليّ (ع) أيضاً: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيؤلّي عليكم شراركم» (الصالح، ١٣٨٧: ٤٢٢). هنالك الكثير من الكتاب والساسة في الشرق الإسلامي الذين ألقوا مسؤولية تأخره بأسره على عاتق التدخل الأجنبي أو الاستعمار، تاركين النقد العلمي للمجتمع الراهن الحافل بالفشل والإحباط والتخلف، راضين بذكر الماضي الزاهر. والراقم لهذه السطور يرافق أولئك الدارسين الشجعان الصدوقين الذين شتموا عن سواعدهم حتى ينقبوا عن جذور هذا التخلف المزمّن، مصدّقاً بأننا ما

دمنا نخطيء علة المرض ولانصدّق على الواقع المرّ «ما حكّ جلدك مثل ظفرك» (صيني، ١٩٩٢: ٣٤) فلا يتحقّق لنا العلاج المحتوم.

يقدم الزهاوي فهرساً كبيراً من الموانع والعراقيل التي حالت دون رقيّ الشعوب الشرقية وبما أنّ هذا الفهرس الشعبي ينطوي على عوامل ذات أهمية كبيرة فصار من الصعب سردها وإعطاء الأولوية لكلّ منها. فتمّ اختيار الأولوية على حسب ما يبدو للراقم فأهمّها هي:

#### ١.١.٤ الشعوب الشرقية لا تريد الرقيّ

يعتقد الشاعر أنّ الشرقيّ المسلم عكس الغربيّ، وقف على شفير الهلاك ولم ينل رقيّاً؛ لأنّهم لم يقدروا على تصريف فعل الإرادة، إذ «إذا الشعب يوماً أراد الحياة/ فلا بدّ أن يستجيب القدر» (الشائي، ٢٠٠٠: ٧٠). فإنّ الإرادة هي التي تسهّل طريق التقدّم الوعر أمام الأقوام الأحرار الغياري العطاش إلى المعالي؛ إذ «على قدر العزم تأتي العزائم» (صيني، ١٩٩٢: ٤١).

أرادَ ناسٌ فحازوا لهم رقيّاً مجيداً  
وقد وقفنا لأننا لم نستطع أن نريداً

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٣٩٦)

يا قومُ قد وعَرَ الطريقُ أمامكم فإذا عزمتم تسهّل الأوعارُ

(المصدر نفسه: ٢٥٠)

#### ٢.١.٤ الجهل والغفلة

كلمة الجهل، عند الزهاوي يقابله العلم الذي هو غذاء للعقول ورافع للأمم. فما من أمة ارتقت سلّم التقدّم، طوال الحياة البشرية إلّا وقد تمسّك بعروة العلم الوثقى فحظي بأثمارها المسعدة. إنّ الشاعر يؤكّد في غير مكان على خطورة هذه الداهية (الجهل و الغفلة) التي حلّت بالشرق بعد أن كان موطناً للعلم ومؤيداً وممدّاً له فصار بكلّ الأسف، أهله في سبات عميق يرتع كالأنعام في مرتعه، مرحّبين بكلّ ضروب الجهالة، دون أن ينتبه أو يفيق وينشط. الجهل وحده كاف عند الزهاوي لتخليف كلّ أمة؛ فلا حاجة إلى المعدّات

مهرعلى يزدان پناه ١٤٧

العسكريّة سيفاً أو غيره؛ إذ هو وحده يصمّ الآذان المصغية ويعمي الأبصار البصيرة في كلّ مجتمع فيغيض معين الإصلاح والنصح والهداية فيه.

سَتَرْتَنِي بِبِلَادِ الشَّرْقِ بَعْدَ اَلْخَطَايَا لَوْ أَنَّ بَنِيهَا اسْتَيْقَظُوا وَتَعَلَّمُوا

(الزهاوي، ١٩٢٤: ١٥٣)

هُوَ الْجَهْلُ أَخَّرَنَا وَحَدَهُ فَلَا النَّارُ ضَارَتْ وَلَا السِّيفُ ضَامَاً

(المصدر نفسه: ٣٣٣)

كَمْ ارْتَفَعَتْ مِنْ أُمَّةٍ بَعْدَ أُمَّةٍ بِإِسْعَادِهَا لِلْعِلْمِ وَالْعِلْمُ يَرْفَعُ  
وَلَكِنَّا مِنْ دُونِ كُلِّ جَمَاعَةٍ مِنْ النَّاسِ كَالْأَنْعَامِ فِي الْجَهْلِ نَرْتَعُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ١٣)

#### ٣.١.٤ كسل أهل الشرق

من زرع الكسل فلا يحصد إلّا الحرمان، كما جاء في الأمثال: «الجدّ في الجِدِّ والحرمان في الكسل» (الصيني، ١٩٩٢: ١٤). هذا ما ثبت على محكّ التجربة البشريّة. فكلّ أمة أرادت أن تغادر أزمة التأخّر عليها أن تتحمّل المصائب والمكاره — كما فعل الغرب — على حسب قول الشاعر — بصبرها واجتهادها حتّى تحقّق غاياتها السامية. فأهل الجِدِّ والصبر لا يبالون الصعاب والمشاقّ التي يواجهونها، فهم قادرون على التغلّب عليها من كثرة ما واجهوها. ولكن أهل الشرق من رؤية الزهاوي، الكسالي، المتهاونون، المترثّون، غير متعبين أنفسهم والماشون الهويناء فيعيشون في خيبة وشقاء وجهل وظلم وأضرار، بعيدين عن السعادة.

تَأَخَّرَ الْقَوْمُ فِي الْبَغْدَادِ مِنْ كَسَلٍ وَكَمْ تَأَخَّرَ قَوْمٌ عِنْدَهُمْ كَسَلٌ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٣٧٥)

الغربُ والشرقُ حتّى اليوم ما استويا هذا نشيطٌ وهذا بعدُ كسلانُ

(المصدر نفسه: ٣٦٤)

#### ٤.١.٤ قضية المرأة في الشرق الإسلامي

للمرأة وقضيّتها في الشرق الإسلامي مكانة واسعة عند الشاعر. هناك خمس معانات تعاني بها المرأة الشرقية من خلال أشعاره، ولكلّ منها نصيب وافر في تخليف الشرق على حدّ تعبيره وهي:

١.٤.١.٤ المتزلة الخاطئة للمرأة المسلمة. للمرأة دور كبير في إنشاء الحضارات ليس أقلّ من الرجل. فمن يستطيع أن يدعي حضارة أو تقدماً حقيقياً مستمراً في التاريخ لا فضل فيه للمرأة. يستدلّ الزهاوي على رقيّ الغرب بتقدّم نسائه وبعزّهنّ الجمّة فيه. فهنّ عنده مدرسة للأبناء وعضد للآباء. فتخلف أبناء الشعب الإسلامي لتأخر نسائه على حدّ تعبيره.

لولا النساء لما بنا  
على الشعوب بمرقى  
نساءها يُستدلُّ  
هنّ في الغرب عزّ  
ن للحضارة شكل  
جمّ وفي الشرق ذلّ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٣١٢)

ليس ترقى الأبناء في أمّة ما  
لم تكن قد ترقّت الأمّهات

(المصدر نفسه: ٤٠٧)

٢.٤.١.٤ عدم تساوي حقوق المرء والمرأة في الشرق. دعا الزهاوي أهل الشرق إلى الالتزام بتساوي حقوق المرء والمرأة، معتبراً أيّهما بجناحي الطائر يطير بهما معاً فلا يغني الواحد عن الآخر للتخليق وال الطيران. والذي تمّ إنجازه في الغرب من دخول المرأة في مجال القضاء والبرلمان والبحوث العلميّة وغيرها يبدي لنا أنّ ظروف المرأة الغربية معاكسة لنظيرتها الشرقية. فلا ينبغي لنا أن نترك هذا العضو الشريف مشلولاً فيحلّ نظام المجتمع.

إنّما المرأة والمر  
وهل الطائر إلّا  
ء سواً في الجدرّة  
بجناحيه يطير

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٩٧)

وإنّها من علوّ على الرجال تطلّ  
شجاعة لا تُبارى وهمّة لا تكيلّ



وإن تُكُنْ قَبْلَ ذَا قَدْ ضَلَّتْ فَأَنْتَ الْمَضِلُّ أ تَرْتَضِي أَنْ هَذَا الْعَضْوُ الشَّرِيفَ يَشْتَلُّ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣١٣)

#### ٣.٤.١.٤ انتهاك حقوق المرأة في الشرق. كلما تحدّث الشاعر عن حقوق المرأة

خاطب المسلمين أو الشرق. المجتمع الشرقيّ في رأيه في ضلال و جهل، مستخفاً بحقوق المرأة، مُجَلِّلاً إيذاءها، كأنها حيوان أو متعة جنسيّة لا يهديها عقل. فلا يمكن للشرق أن ينقذ نفسه من وهدته إلّا باحترام حقوقها.

الناسُ في الشرقِ ضَلُّوا      سَيَلَهُمْ وَأَضَلُّوا  
وبالحياةِ اسْتَخَفُّوا      وبالْحَقُوقِ أَخَلُّوا  
ظَنَّ النِّسَاءَ رِجَالٌ      صِنْفًا أَذَاهُ يَحِلُّ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣١١)

لا يَرَفَعُ الشَّعْبُ مِنْ أَعْمَاقٍ وَهَدَيْتَهُ      إلَّا رِجَالٌ أَوْلُو عِزْمٍ وَنِسْوَانٌ

(المصدر نفسه: ٣٦٦)

#### ٤.٤.١.٤ الحجاب. وهو بمعنى اللبس للرجل والمرأة. ليس من المستجدات؛ بل نجد

لبنته في ذات البشر منذ القدم، فكان لكلّ زمان لبسة. هناك خلاف بين المسلمين في كمّه ونوعه. الذي يبدو هاماً في هذا المجال أنّ العفاف هو المقصود من الحجاب وهو لا يخصّ المرأة فقط بل يشمل على الرجل أيضاً. إنّ نقد الزهاوي اللاذع للحجاب السائد في عصره بين المسلمين — حيث كان يُهدم صرح حرّية المرأة من أسّها بذريعة الحفاظ على الحجاب — تاريخ مؤلم سيجرح قلب كلّ انسان منصف في المستقبل. فكان الحجاب آنذاك بمعنى أنّ المرأة محظورة على الخروج من المنزل حتّى لطلب النور أو الهواء النقيّ وأنها غير قادرة أن تُشارك في شأن من شؤون المجتمع علماً، عملاً، إنتاجاً وغير ذلك. فالحجاب بهذا المعنى عند الشاعر، إنّما هو القبر وسجن في كلّ صقع عند المسلمين وللمسلمات. فلا مغبّة له إلّا تخليف الشرق الإسلاميّ وشلّ نصف من طاقتهم البشريّة.

هَكَذَا الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ صَقْعٍ      حَجَّبُوا لِلْجَهَالَةِ الْمُسْلِمَاتِ

سَجَّوْهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَشَلُّوا      نصفَ شعبٍ يَهْمُ بِالْحَرَكَاتِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٠٩)

أَحَرَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ أُمَّمِ الْأُ      رَضِ حِجَابٌ تَشَقَّى بِهِ الْمُسْلِمَاتُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٨١)

إِنَّ هَذَا الْحِجَابَ قَسِيرٌ كَثِيفٌ      حَالَ بَيْنَ الْفَتَاةِ وَالنِّسَمَاتِ  
إِنَّ هَذَا إِثْمٌ أَقْبَحُهُ مَا      جَاءَ حَاضٌ عَلَيْهِ فِي الْآيَاتِ  
تلك أعمالهم من الجهل عدو      ها على سؤيها من الحسنات

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٠٩)

**٥.٤.١.٤ الطلاق.** هو من المعضلات التي عانى منها المجتمع الإنساني آلاماً فظيعة. من منظور الشاعر يختلف الطلاق في الشرق عما في الغرب لاختلافهما ثقافة ولما يترتب عليه الأمر فيهما من الآثار السلبية.

كَمْ هَدَّ فِي الشَّرْقِ      بعدَ الزواجِ الفراقُ  
كراهةً فسَّابُ      فركلَّةً فطلاقُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٢٥٥)

#### ٥.١.٤ الارتداد عن التدبير في الشرق

وهو لغة: «التدبير في الأمر: أن تنظر إلى ماتؤول إليه عاقبته و التدبير: تفكر فيه» (ابن منظور، لسان العرب: مادة دير). وإن أكد الإسلام التدبير والتعقل تأكيداً قلّ بديله في أديان أخرى، بيد أننا نواجه مشهداً يعكس في واقع الحياة عند المسلمين ولا في الغرب. فالشرقيّ لا يبالقشور لا باللباب في دينه ودينه، متعصب، مضيق على عقله، أسير للقيود والعادات السيئة يحترمها لحدّ العبادة. فليس حرّاً في فكره يهيمه الرأي والحجاء؛ إذن، لا يفرق بين يديه سداد الرأي والخطل. وليس عدته العلم، فحياته مليئة بالسكون فليس بالحركة.

الغربُ مُسْتِنْدٌ إِلَى التَّدْبِيرِ      والشرقُ مُعْتَمِدٌ عَلَى التَّقْدِيرِ  
الغربُ قد أخذَ اللِّبَابَ لِنَفْسِهِ      والشرقُ لا يَهْلُهُ بِقَشُورِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٦٧)

هو التعصّبُ قد والله أَخْرَكَمَ عَنِ الشُّعُوبِ الَّتِي تَسَعَى فَتَقْرُبُ  
(الزهاوي، ٣٠٧:١٩٢٤)

#### ٦.١.٤ الأخلاق الاجتماعية الفاسدة

كما معروف في المثل: «الأمم بأخلاقهم». فإذا فقد أمة أخلاقها فمن الواجب أن يقام لها مائماً وعويلاً (شوقي، ١٩٨٦: ١٨٣). بناء على هذا لا يستقيم أمر أمة إلا إذا استقامت أخلاقها. فالسعادة الحقّة في حسن الأخلاق فرداً وشعباً. الشوق على حدّ تعبير الشاعر قبحت أخلاقه فصار يكابد ويعاني النفاق، الوقاحة، التعصّب، الكذب، والخدعة والرثاء.

إِنَّ أَرْضاً لَهَا يُقَالُ الْعِرَاقُ قَبِحَتْ مِنْ رَجَالِهَا الْأَخْلَاقُ  
كُلُّ مَا فِيهِمْ فَلَيْسَ يُطَاقُ نَخْوَةٌ عَنِ وَقَاحَةِ وَنِفَاقٍ  
(الزهاوي، ١٣٢٧: ٢٧)

#### ٧.١.٤ الصمتُ أمام الظلم

قيل «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (الصيني، ١٩٩٢: ١٤). التعاليم السامية في هذا المضمار، آية أو حديثاً أو مثلاً أو حكمة التي تتراوح بين المسلمين لا تعدّ ولا تحصى. وبالرغم من كلّ هذه، أصبح الشرق الإسلامي ملاذ حكّام ظلمة ومأمّنهم. فلا ينتهي عمر دولة ظالمة فيه إلا يتبوأ مكانها أسوأ منها. فما نصيب أهله من الحكّام إلا ظلم متزايد غير قابل للتقييم كمّاً وكيفاً. ومن جانب آخر وهب الله الدول الإسلامية الكثير من الخيرات تحت الأرض أو خارجها برّاً أو بحراً، ولا يحظى بها سوى القليل من الأسرة الحاكمة وأنصارها المرتزقة. ما ردّ فعل المسلم تجاهها؟ وللأسف الكبير، الشرقيّ أمام هذه السلاطين الجابرة لا يعرف سبيلاً سوى الصمت السقيم القتال كأنه ميّت ليس له فم.

قَدْ سَكَنَّا وَكَيْتْنَا مَا سَكَنَّا فِي بِلَادٍ كَثِيرَةٍ الْأَزْمَاتِ  
فِي بِلَادٍ نُسَامُ فِيهِنَّ خَسَفًا وَنُظِيلُ السُّكُوتَ كَالْأَمْوَاتِ  
(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٨٨)

#### ٨.١.٤ عدم الاكتراث للأدب

إنَّ للأدب دور راقٍ في تنوير رأي العامِّ وتوسيع الثقافة عند الأمم. فللأدب وللأديب في الغرب قدر واحترامٍ جمّ. وكان الأدب — في رأي الشاعر — سبباً لارتقاء الأمة الإسلامية في عصرهم الذهبي.

قد تَرَقَّتِ العربُ      بعدَ ما ارتَقَى الأدبُ  
إِنَّه لِنَهْضَتِهَا      وحدهُ هو السَّبَبُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٢٥١)

ما للأديبِ بقطره      في الشرقِ قدرٌ يُذكرُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٦٣)

#### ٢.٤ الحكومات و الدول

لا ينطلي على أحد دور الحكام وفضلهم في قيادة الممالك وهدايتها إلى العلم والمال والازدهار. فهذا ممّا لا ريب فيه؛ إذ، كما قيل «إذا كان القائد يوماً كان المقصد خراباً». من ناحية أخرى، القادة قدوات يحتذي بها الشعب. فبهم الأسوة في كلّ شيء ظاهراً أو باطناً وعلماً أو مالاً وحبّاً أو كراهة؛ لأنّ «الناس على دين ملوكهم». وإذا نعيد النظر إلى دراسات غير قليلة حول العصر الذهبي الإسلامي أو بعده فأوّل ما يسترعي نظرنا هو الدور الإيجابي للخلفاء العباسيين من هارون و مأمون و معتصم وغيرهم في هذا الازدهار الفاخر و الدور السلبي للمتوكّل و من تلاه في الانحطاط المدمر المتواصل.

ومن جهة أخرى إنّ البحوث التي عنيت بتخلّف الشرق وأسبابه لم تترك صغيراً وكبيراً ممّا يرتبط بدور الدول أو قضيّة التدخّل الأجنبي. إلّا أنّ الإشكال الوارد عليها يتوجّه نحو قلة أخذها بعين الاعتبار على الدور الرئيسي للشعوب في الشرق. وممّا يلفت النظر في هذا المضمار أنّ الزهاوي عرف مكانة هذه الأسباب كلّها حق المعرفة فسردها ورثبها في منزلتها الحقيقيّة. إنّه في البداية يعترف على فضل استيقاظ الشعوب وتعلّمها ثمّ يؤكّد دور الحكومات وأخيراً يشير إلى التدخّل الأجنبي.

مهرعلى يزدان پناه ١٥٣

سَتَرَفِي بِلَادُ الشَّرْقِ بَعْدَ انْخِطَاطِهَا      لَوْ أَنَّ نَبِيهَا اسْتَيْقَظُوا وَتَعَلَّمُوا  
يَزُولُ تَمَاماً مَا بِيهَا مِنْ تَأَخُّرٍ      لَوْ أَنَّ حُكُومَاتِ الْبِلَادِ تُنْظَمُ  
لَقَدْ طَالَ صَبْرُ الشَّرْقِ يَا غَرْبُ فَازْدَجِرْ      فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَجِرْ سَوْفَ تَنْدَمُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ١٥٣)

#### ١.٢.٤ حكومة الأراذل على الأفاضل

يبدو أنّ هذا العامل أكثر تأثيراً بين سائر الأسباب الحكوميّة على تأخّر الشرق وإن قدّمت الدراسات المعنيّة، المشكلة الاستبداديّة إلى المرتبة الأولى. يعتقد الزهاوي أنّ الطبقة الحاكمة في الشرق من المخفوضين لا من العليا والفضلى. فيكرم فيه ذو نقص وينكّي السيّد الشريف الكريم. كما يكون العزيز والنجيب فيه محقراً ومعذباً وكذلك الرتب والوسامات اللامعة المتباهية بها كذبة. فهم الشاعر المشكلة حقّ الفهم ولا مردّ ولا سبب لها عنده إلّا الجهل. فمن الطبيعي أنّ المجتمع لا يبلغ رشدّها إذا كان الطبقة المنوّرة المصلحة العامّة في عزلة، معذّبة مشرّدة بعيدة عن سُدّة الحكم والتقنين و القضاء. ومن أشعاره:

قَضَى اللَّهُ أَنْ تَشَقَى بِلَادُ بَاهِلِهَا      فَيَكْرُمُ ذُو نَقْصٍ وَيَنْكِي سَمِيدُ  
بِلَادُهَا قَدْ ضَاعَ مَنْ كَانَ فَاضِلاً      وَلِلْمُلْكِ مِنْ أَهْلِ الْفَضِيلَةِ أَضِيعُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ١٣)

وَلَا الرُّتْبُ المِعْطَاةُ تُرْفَعُ شَأْنُهُ      إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ مَا يُرْفَعُ

(المصدر نفسه: ١١)

#### ٢.٢.٤ الحكومات المستبدة ذات سلطة مطلقة

هي من الآفات الكبيرة للرقيّ في الشرق. من مؤشّراتها عند الشاعر أنّ الحاكم المستكبر الطاغى وهو ظلّ الله في أرضه لا يُسأل عن فعله. وله الصلاحيات المطلقة، فلا قيمة للناصح المصلح عنده. يسوس دولته المهمجيّة البوليسيّة بما يقضي هواه وليس بالتدبير، رافعاً الجاهل وخافضاً العاقل، كأنّ الناس أسرى عبيد عنده فلا يعاملهم بالإشفاق والرحمة.

فِيَا وَيْحَ قَوْمٍ فَوَّضُوا أَمْرَ نَفْسِهِمْ      إِلَى مَلِكٍ عَنِ فِعْلِهِ لَيْسَ يُسْأَلُ

إلى ذي اختيارٍ في الحكومة مطلقٍ      إذا شاءَ لم يفعل وإن شاءَ يفعلُ  
وذي سلطةٍ لا يرتضي رأيَ ناصحٍ      إذا قالَ قولاً فهو لا يتبدلُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٩-١٠)

أ يأمرُ ظلَّ الله في أرضه بما      نهى الله عنه والرسولُ المبجلُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ١٠)

يبدو أنّ هذه المشكلة المتسعة نطاقها في الشرق لها جذور تاريخية، فلا يمكن الخلاص منها إلا بالشؤون الثقافية الكثيفة الرامية إلى تنقيف المجتمع وتنويره شعبا وقيادة كما اهتمّ بها الزهاوي من خلال أعماله.

نسعى لنفع الآخري      ن من الذين لهم مناصبُ  
ونعيش في حالة النعاب      سة بالأمان الكواذب

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٤٩)

يا مالكا أمر هذي الناس في يديه      عامل برفق رعائك المساكينا  
ليست طريقك محمودا معتتها      غير إذا شئت في الأحوال تحسينا

(المصدر نفسه: ٦٣-٦٤)

#### ٣.٢.٤ نشر الجهل

انتهت الحكومات الشرقية رغم ماضيها الزاهي بالعلم إلى حكام خالقة للرشى والسراقات والفساد والظلم و التخريب والنهب. فلا ترى من مصلحتها إلا نشر الجهل سارة به؛ لأنّ العلم — كما يؤكد الشاعر — مرشد للانسان لكي يعرف حقوقه ويدافع عنها.

وعوض عنها دولة ثم دولة      تسر بكون الجهل في الناس فاشيا  
وذلك لأن العلم للمرء مرشداً      يعلمه عن حقه أن يحاميا

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٥٧)

#### ٤.٢.٤ الحكومة الأمنية و انعدام الحرية فيها

من البديهيات عند كل ذي لب سلم وجدانه، أنّ الحرية موهبة إلهية، خوّلها الله الإنسان.

فلا يستطيع أحد أن ينكرها أو يسلبها. يعتقد الشاعر أن الشرق فقدت الحرية بكل أنواعها المصادق عليها عند منظمات حقوق الإنسان من حرية التفكير و التعبير واختيار نوع الحكم وغيرها. فبدأ الشرقي يعيش في بيئة بوليسية تضيق العقول وتضع الأضواء الحمراء أمام طرائق الفكر كلها، فلا نصيب للأحرار إلا ركوب الخطوب والأهوال والنفي والسجن أو الهلاك. فالطقس الأمي جعل نصف الشعب جاسوساً على نصفه الثاني فأصبح الراحة عادة، يتعطش الشرقي إلى لقيائها.

يا شرق أنت على العقول مضيق والغرب مبيها بلا تضيق

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٢٧٨)

إن حرية الكلام رداً تتفاني في حبها الأرواح

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٧)

ما نال في بغداد آماله إلا الذي قد كان جاسوساً

(المصدر نفسه: ٢٦٢)

#### ٥.٢.٤ حكومات لا تقبل الإصلاح

هذه الميزة داء مزمن، أعى كل شرقي حرّ مصلح. فجعله خائباً، فقد أمه في الإصلاحات المنقذة الضئيلة مؤونة؛ فيلتجأ إلى ثورات باكرة أوأها، لا تلحقه إلا الخسران والندم؛ فيعود في حقبة غير طويلة إلى مكانتها الأولى. إن الإصلاح أمر لا مفر منه في أي مجتمع. الحكومات الدكتاتورية والمستبدة، لا تدور رحاها إلا مدار حجر الهوى؛ فلا تشعر بحاجة إلى تقييم المتطلبات المستجدة للشعوب وتفعيل إرادتها في إدارة البلد بأسلوب علمي وعلى أيدي أخصائيين معينين. فليس أمام الشرقي الحر من ملاذ إلا الثورة. الأمر الذي يتعارض تماماً مع نظيرها في الغرب حيث بنيت الحكومات المتحضرة الغربية على أعمدة، بنيتها التحتية الإصلاح فلا تلوذ بالثورات بل إلى صناديق الاقتراع أو الاستفتاء.

أُصلح في الشرق الحكومات شأها لعل الغنى والعلم يجتمعان

تراهم أغبياء عند مصلحة وفي المفاصل تلقاهم شياطينا

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٦٤)

وَعَدُّهَا بِالْإِصْلَاحِ حَمٌّ وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ الْإِصْلَاحُ حَدَّ الْكَلَامِ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٩١)

#### ٦.٢.٤ فقدان العدل في الشرق

العدل بمعانيه المتنوعة خاصة، المعنى الذي يقابل الظلم، يطرح نفسها عند الزهاوي غالباً. وهو منعدم في الشرق عكس الغرب وذلك لتفشّي الظلم ملء الشرق الإسلامي كلّه. إنّ مدلولات العدل تتردّد في مواضع كثيرة جداً عنده، فلا يسع المجال ذكرها هنا، حيث يستحقّ أن نعدّ العدل ضالّته المنشودة.

الظلمُ حيٌّ فيه نامٍ شائعٌ والعدلُ ميّتٌ لا يجيبُ إذا دُعِيَ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٨٦)

لَا أَرَى بَيْنَ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ بَوْنًا      غَيْرَ أَنَّ الْأَحْكَامَ مَخْتَلِفَاتُ  
سَيُؤَافِي مَدَى التَّقَدُّمِ قَوْمٌ      وَسَعَتْ فِيهِ مِنْهُمْ الْخَطَوَاتُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٨١)

#### ٧.٢.٤ انتهاك حقوق الإنسان في الشرق

بالرغم من أن التعاليم الإسلامية السامية تزهو باحترامها الجمة لحقوق الإنسان، حتّى لحقوق الحيوان؛ بيد أن المجتمع الإسلامي لا يزال يفتقر إلى الحفاظ على هذه القيم العالية. فالزهاوي بصراحة تامّة ودون أية رقابة يرفض الانتهاكات اللاإنسانية الفاشية لحقوق الإنسان في الشرق.

الشرقُ أكثرُهُ لِلْحَقِّ مُهْتَضِمٌ      والغربُ أكثرُهُ لِلْحَقِّ مُدْعَانُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٣٦٤)

الحديث عن الإنتهاكات لحقوق الإنسان في آثاره ذات جوانب متعدّدة. يمكن للقارئ أن يرثبه على الشكل التالي:

#### ١.٧.٢.٤ انتهاك حقوق الشعب بصورة عامّة

وَهَبَ اللَّهُ لِلرَّعَايَا حَقُّوْهُ      غَصَبَتْهَا مِنَ الرَّعَايَا الْوُلُوْهُ

(المصدر نفسه: ٢٨٦)



#### ٢.٧.٢.٤ انتهاك حقوق المرأة

التاسُ في الشرقِ ضَلُّوا      سبيلَهُم وأَضَلُّوا  
وبالحياةِ اسْتَحَفُّوا      وبالْحَقُّوقِ أَخْلُّوا  
ظَنَّ النساءَ رجالٌ      صَنَفًا أذاهُ يَحِلُّ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٣١١)

#### ٣.٧.٢.٤ انتهاك الحقوق العلمية

العلمُ يا بلداً نشأتُ بأرضِهِ      ضاعَتْ لديكِ حقوقُهُ وحقوقِي

(المصدر نفسه: ٢٢٧)

لايكتفي الزهاويّ بذكر أمثلة من الانتهاكات هذه فحسب بل يدرس أسبابها في الشرق فيحصيها من خلال أشعاره وهي كما يلي:

١.٣.٧.٢.٤ الجهل. وهو من أهم الأسباب عند الشاعر لانتهاكات المتزايدة للحقوق في الشرق. يعتقد الزهاويّ كلما استمرّ جهل الشعوب الشرقية لحقوقهم وتأييدهم للحكام ازداد تدمير الشرق وتحوّلها إلى أطلال.

إني أَظُنُّكَ لا تَرَى بمكانها      من بعدِ بضعِ سنينِ غيرَ رَمادِ  
فهناك أهلٌ يجهلون حقوقَهُم      وحكومةٌ تَعْتُو ودهرٌ عادي  
هم أَيْدُوا الحكامَ في تدميرها      فكأنّهم لو ينجحون أعادي

(المصدر نفسه: ١٤٣)

٢.٣.٧.٢.٤ افتقار الشرق إلى أحزاب. لا شكّ أنّ تواجد الأحزاب المسلّحة بوسائل الإعلام في كلِّ مجتمع من العوامل الرادعة عن أيّ انتهاك.

لِكُلِّ هَوَى في الشرقِ حزبٌ مؤيِّدٌ      سيوى أنّ فيه الحقُّ ليسَ بذي  
ولا يَصِلُ الإنسانُ في طلبِ العُلَى      إلى منزلٍ حتّى يَسِيرَ عَلى الدَّرَبِ

(المصدر نفسه: ٣٣٥)

٣.٣.٧.٢.٤ غياب العدل بين أهل الشرق لكثرة ما تفتش بينهم من الفساد والظلم

حتى ظلّ الانتهاك أمراً اعتيادياً بحيث لا ينهض الشعب عليه. فهم أهل الشرق كلّهم الحفاظ على المصالح الشخصية فلا يهتمهم المجتمع.

الظلم حيّ فيه نامٍ شائعٌ والعدل ميتٌ لا يجيبُ إذا دُعِيَ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٨٦)

إذا ما رجالُ الشرقِ لم ينهضوا معاً فأضيعُ شيءٍ في الرجالِ حقوقها

(المصدر نفسه: ١٤٩)

#### ٨.٢.٤ عدم الاستقرار في الشرق

وهو من أشدّ الكوارث المدمّرة في كلّ مجتمع. الشرق من جهة تعاني طيشان حكام متقلّبين مدارهم الهوى. ومن ناحية أخرى تقاسي قوانين طائشة. وأضف إلى ذلك انعدام الأمن.

كيفَ القرارُ على الأرزاءِ في بلدي إنّ السفينةَ في الأمواجِ تضطربُ

(المصدر نفسه: ٨٣)

ليسَ شيءٌ يضُرُّ بالناسِ كالطّيشِ إذا دامَ دافعاً في الحياةِ

(المصدر نفسه: ٤٠٧)

والأمنُ قد غابَ عن عينيّ مشهدهُ فليتَ ما غابَ عن عينيّ لم يغبِ

(المصدر نفسه: ١٣١)

#### ٩.٢.٤ عدم وجود وحدة وطنية في الشرق

السياق الديني والعرقى واللغوي في العديد من البلدان الشرقيّ، يوجّه مسؤوليّة كبيرة نحو الحكام لكي يستخدموها كميزة إيجابية للرقى، مثلما فعل الغرب؛ فأصبحت الأقوام باختلافها في اللغة والدين والجنسيّة تخدم مصالحه في أمن واستقرار. والأمر بنسبة عكسيّة في الشرق؛ فهناك نوع من الحساسيّة والعداء والاشتباكات وغير ذلك بينهم، وذلك لاتباع سياسة التفريق والشقاق ولعدم الالتزام بتنفيذ الحقوق المتساوية في المجتمع. نرى أنّ الزهاويّ يؤكّد غير مرّة خطورة الحفاظ على الوحدة خاصة، ما يرتبط بالأديان؛ إذ ليس هنالك حضارة أو تقدّم قد نبعا من التفريق والعداء.

ما سرّ بالنفع قوماً  
وما أضّرّ بقومٍ  
في الغربِ إلّا الوفاقُ  
في الشرقِ إلّا الشّقاقُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٣٤٠)

قومٌ قد اتّحدتِ للحقِّ وجهتُهُم  
عاشَ التّصارى بهِ والمسلمونَ معاً  
فلا تُفرّقُ بينَ القومِ أديانُ  
وقد تصافحَ انجيلُ وقرآنُ  
أما البلادُ فأدنى ما رأيتُ بها  
حضارةٌ ملأتُ عيني وعمرانُ

(المصدر نفسه: ٣٦٣)

#### ٣.٤ مكافحة العلوم في الشرق

كلمة العلم بمعانيها المختلفة، مفتقدة في الشرق افتقاراً، وليس هذا الكلام زعماً. فبدأ أهله يعيشون في جهل مدمر مع احتقار العالم الخبير. فما صار نصيبهم من الحياة إلّا الفقر والجهل. فيرى الزهاوي أنه هو الذنب الذي سوف لا يغفره الرحمان.

أما العلومُ فإنّها مفقودةٌ  
جهلوا العلومَ ففأنتهم نيلُ العنّى  
بتمامها وإن ادّعاها المدّعي  
والجهلُ عنوانٌ لفقر مدقع  
قد يغفرُ الرحمنُ كلَّ ذنوبهم إلّا  
احتقارَ العالمِ المتضلّع

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٨٦)

تجاوز الجهل في الشرق درجةً يجهل الشرقيّ تاريخ مملكته التي يعيش بها قديماً أو حديثاً فعسى أن يدخل في فتحٍ قد وقع فيه وعاناه جيله السابق. هذا ما أجاد إشارته إليه الكاتب النراقي في كتابه المعروف جامع شئناسى خودمانى أي علم الاجتماع الصريح والحميم تحت العنوان التّاريخ غريب لدينا، قائلاً: «من الآلام في بلادنا أن يجهل أهلنا حتّى المتعلّمون تاريخهم... فالشعب الذي لا يطّلع على تاريخه ولا يقرأه، لا بدّ له إلا أن يجرب أيّ شيء هو نفسه. فهل عنده الفرصة لذلك؟» (نراقي، ١٣٨٠: ٣٣).

كان ذمّ الجهل يحتلّ مساحةً كبيرةً في أشعاره. كما كان التوجيه إلى العلم أكبر شاغل له، مؤكداً أنّ العلم هو العامل للتقدّم الغرب والجهل هو الذي أحرّنا في الشرق. يعتقد

الزهاوي أنّ الشرقيّ يكره العلم ويكافحه وكأنّه إثم. في حين نواجه أنّ الجهل محترم في الشرق ممّتعاً بعلوّ الجاه والرتبة في المحافل. ويبلغ الجاهل مبتغاه دون سعي وتعب:

أَيُّهَا الْعِلْمُ أَنْتَ فِي الشَّرْقِ نُكْرُ وَأَتَاكُمْ وَأَنْتَ فِي الْغَرْبِ فُخْرُ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٢٦)

يُؤَدِّي لِرِجَالِ الْعِلْمِ أَهْلُ الْغَرْبِ تَبْجِيلًا يُقِيمُونَ لَهُمْ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ تَمَاتِيلاً

(المصدر نفسه: ٢٥٨)

لَا شَيْءَ فِي الشَّرْقِ أَعْلَى مِنْكَ مِثْلَةً يَا جَهْلُ حَسْبُكَ هَذَا الْمَجْدُ مِنْ حَسَبِ

(المصدر نفسه: ١٣٠)

#### ٤.٤ الجهل الديني (ليس الدين سبباً لتخلف الشرق)

يرفض الزهاويّ كمّدين بالإسلام ما أورده الغربيّون من مزاعم عن جهلٍ بأنّ الإسلام هو السبب في تأخر الشرق، مؤكداً أنّ الإسلام أجلّ شأنًا من هذه المزاعم من جهة ومن جهة أخرى كفيلسوف جريء يرى من مسؤوليته أن يدرس ادّعاءاتهم وحججهم دراسة علمية فيستخلص أنّ ما جاء به المسلمون عن جهل وإساءة فهم للقرآن، من معاناة المرأة وقضيّة الحجاب وتعدّد الزوجات وغيرها، خارج عن الدين الإسلاميّ. كما قيل «يقولون في الإسلام ظلماً بأنّه/ يصدّ ذويه عن طريق التقدّم» (الرصافي، ٢٠٠٢: ٥٣٠).

لَقَدْ ظَنَّ أَهْلُ الْغَرْبِ أَوْ بَعْضُ أَهْلِهِ وَبَعْضُ ظُنُونِ النَّاسِ بِالنَّاسِ مَا تُثْمُ  
بِأَنَّ بَقَاءَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعَهُمْ عَلَى الْجَهْلِ إِعْصَارًا مِنَ الدِّينِ يَنْجُمُ  
لَقَدْ جَهَلُوا الْإِسْلَامَ كُلَّ جِهَالَةٍ فَأَذُوهُ ذَمًّا شَأْنًا مِنْ لَيْسَ يَفْهَمُ  
وَعَدُّوا مِنَ الْأَسْبَابِ وَهِيَ عَدِيدَةٌ لَدَيْهِمْ حِجَابَ الْمُسْلِمَاتِ وَأَعْظَمُوا  
وَأَمَّا التَّعَدِّي فِي الزَّوْجِ لِأَرْبَعٍ فِيمَا أَسَاءُوا الظَّنَّ فِيهِ وَأَوْهَمُوا  
نَعَمَ جَوَزَ الْقُرْآنُ ذَاكَ لِأَهْلِهِ بِشَرَطٍ إِذَا رَاعَوْهُ فَهُوَ مُحَرَّمٌ

(الزهاوي، ١٣٢٧: ١٠٥)

يلقى الشاعر أعباء المسؤولية على عاتق غلاة المسلمين لإخطائهم في استنتاجهم الدينية ولتأويلاتهم ولتناسيرهم الشخصية وإفراطهم وتفريطهم بعدين عن القصد والاعتدال.

يقولون إن الدين يجحدُ رشدها      لقد كذبوا فالدين ليس به جحدُ  
ولم ينفِ رشدَ المرأة الدين نفسه      ولكن غلاة الدين ليس لهم رشدُ  
وأفرطَ أقوامٌ وفَرَطَ غيرهم      وإنَّ طريقَ المفلحين هو القصدُ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٨٦)

ليس ترقى الأبناء في أمية، ما      لم تكن قد ترقى الأممات

(الزهاوي، ١٣٢٧: ٤٠٧)

إنه كشاعر مسلم يعتقد أن الدين سبب لتنوير الفكر وتقدم الأمم كما حدث في الغرب. فكان الغربي قد ارتقى سلم الرقي مؤيداً بالدين. وكذلك كان شأن المسلمين أيام رقيهم خلال عصرهم الذهبي حيث ركنوا إلى الدين والعلم فجازوا ما حازوا.

ألم تدر أن الناس في عصرنا الذي      نعيش به بالدين قد نوروا الفكر  
وما أمة إلا ثدين بصانع      يُقرُّ بذا من للشعوب قد استقرى

(المصدر نفسه: ١٠٥)

#### ٥.٤ التدخل الأجنبي

كانت موارد النفط، المناجم، المواقع الإستراتيجية والأسواق المربحة للبلدان المعنية، عوامل رئيسية للتدخل الأجنبي. بحسب قراءتي، لم أجد دراسة عنيت بأسباب تأخر الشرق ولم يتصد راقمها للتدخل الأجنبي. هذا لا يعني أنني أنكر تأثير العامل الهام على الشرق. ولكن بالنسبة إلى مدى تأثيره، هنالك بون شاسع جداً بين تلك البحوث والدراسات بعضها عن بعض. كما أشرت سابقاً هنالك من يببالغ أو يغلو في مدى تأثيره مبتعداً عن المنطق العلمي فيضع هذا السبب موضع العلة الرئيسية. يبدو أن للعامل تأثير كبير جداً في استمرار التخلف وتقويته؛ لكن علة العلل — مهما كانت —، فلا بد أن يتابعها الشرقي في الداخل

وليس في الخارج. لأن الاحتكاك بين المشرقين لم يحدث إلا بعد القرن الثامن عشر وكان الشرق يسيل مسيل انحطاطه قبل ذلك من قرون. هذه من جهة ومن جهة أخرى، كما يؤكد زيبا كلام في كتابه *ما جگونه ما شدیم؟* أي كيف وصلنا إلى هنا؟: إذا اعتبرنا تخلفنا معلول التقابل بيننا والغرب، فكان هنالك تقابلات بين البلدان الغربية أنفسها لا تقل مستواها مما جرى بين الغرب والشرق؛ فكيف لم يؤدّ التقابل إلى تأخرها أو البعض منها. وبتعبير آخر عندما تمّ التلاقي بين الشرق والغرب كان الشرق خاصة العرب والفرس في تخلف قدم (زيبا كلام، ١٣٨٦: ٢٩٦).

وإن حملنا أعباء المسؤولية على الاستعمار أو الاستثمار فلم نمش في الطريق الحق؛ إذ هناك بلاد ذقت طعم الاستعمار في قلبها وقالها كهند إلى سنة ١٩٤٧ لكنها تحولت اليوم أكبر بلاد العالم ديمقراطية واقتصاداً وكذلك الصين. وبناء على العقل السليم إذا حسبنا التدخل الاستعماري هو العامل لاستمرار التخلف بين المسلمين فهذا العامل معلول ولا بدّ له من علة داخلية، ولا يُعقل البحث عنها إلا داخل الشرق.

سبق لنا القول أنّ الزهاوي عرف الأسباب الرئيسية لتأخر الشرق حق المعرفة باحثاً عنها داخل الشرق شعباً وحكومة وغيرهما فأكدّها من خلال أشعاره مراراً وتكراراً، لا يمكن عدّها وإحصاءها في مثل هذا المجال. إنّ الشاعر يتطرق إلى التدخل الأجنبي غير مرّة في أشعاره، مشيراً إلى الأضرار والخسائر التي تكبدها الشرق لأجله، دون أن يحمّل الغرب المسؤولية كلّها أو يدعو الشرق إلى المكافحة والحرب واستنزاف الدماء. فسلححه تنوير الأفكار في الشرق وإلى جانبه، دعوة للغرب إلى الكفّ عمّا يسمّيه الزهاوي الفخر بالمال والتقدم، الغرور، الضرر، التزلف، الإجحاف بحق الشرق، سرقة الأموال، الغصب. فمن الممكن أن نعتبره ناصحاً أو ناقداً للغرب أو محذراً منه.

أُتْرَعَمُ أَنْ الشَّرْقَ يَلْبَثُ صَاغِرًا      أَمَامَكَ مَعْصُوبًا وَأَنْتَ المَكْرَمُ  
وَبَقِيَ عَلَيْهِ هَكَذَا مُتَسَيِّطِرًا      تَمَصُّ دَمَ الأَمْوَالِ فِيهِ وَتَهْضَمُ

لا يحدّ عنك تزلّفٌ يُدلي به يا شرقُ إنّ الغربَ غيرُ صديقٍ

(الزهاوي، ١٩٢٤: ٢٨٤)

## ٥. النتائج

١. يقدّم الزهاوي فهرساً كبيراً من الأسباب التي أدت إلى تاخّر الشعوب الشرقية من خلال أشعاره، منها: أ) الشعوب الشرقية لاتريد الرقيّ، ب) الجهل والغفلة، ج) كسل أهل الشرق، د) قضية المرأة في الشرق الإسلاميّ، هـ) فراغ التدبير في الشرق، و) الأخلاق الاجتماعية الفاسدة، ز) السكوت أمام الظلم، ح) عدم الاكتراث للأدب.

٢. عرف الشاعر مكانة الأسباب الحكومية حقّ المعرفة فسردها ورتّبها في منزلتها الحقيقية. منها: أ) حكومة الأراذل على الأفاضل، ب) الحكومات المستبدة ذات سلطة مطلقة، ج) نشر الجهل، د) الحكومة الأمنية و انعدام الحرّية فيها، هـ) الحكومات غير القابلة للإصلاح، و) فقدان العدل في الشرق، ز) انتهاك حقوق الإنسان في الشرق، ح) عدم الاستقرار في الشرق، ط) عدم وجود وحدة وطنية في الشرق، ي) مكافحة العلوم في الشرق.

٣. يعتقد الزهاوي أنّ الشرقيّ يكره العلم ويكافحه وهو عنده إثم، وسبب للإيذاء والأضرار. والعلم والعالم عاجزان عن إدراك بغيتهما. في حين نواجه أنّ الجهل محترم في الشرق.

٤. الجهل الديني عنده، سبب لتخلّف الشرق. يرفض الزهاويّ كمدين بالإسلام ما أورده الغربيون من مزاعم عن جهلٍ بأنّ الإسلام هو السبب في تأخّر الشرق. فيستخلص أنّ ما جاء به المسلمون عن جهل وإساءة فهمهم للقرآن، خارج عن الدين الإسلاميّ.

٥. التدخّل الأجنبيّ يتبوأ المكان الأخير عند الزهاويّ. هو لا يدعو الشرق إلى المكافحة أو الحرب ضدّ الغرب. فمن الممكن أن نعتبره ناصحاً أو ناقداً للغرب أو محذراً منه.

## المصادر

القرآن الكريم.

نمّج البلاغة (١٣٨٧ش). تصحيح صبحي الصالح، قم: دار الهجرة.

- البعليكي، منير (١٩٩٢م). المورد، قاموس انكليزي — عربي، بيروت: دار العلم للملايين.
- جمال الدين محمد ابن منظور (د.ت). لسان العرب، المجلد الرابع، بيروت: دار الصادر.
- الرصافي، معروف (٢٠٠٢م). الديوان، شرحه الدكتور يحيى شامي، بيروت: دار الفكر العربي.
- الزهاوي، جميل صدقي (١٣٢٧هـ). ديوان جميل صدقي الزهاوي، الجزء الأول الكلم المنظوم — الرباعيات، عنى بشره و ترتيبه محمد يوسف نجم، مصر: دار مصر للطباعة.
- الزهاوي، جميل صدقي (١٩٢٤م). ديوان الزهاوي، مصر: المطبعة العربية بمصر لصاحبها خير الدين الزركلي.
- زيياكلام، صادق (١٣٨٦ش). ما چگونه ما شلیم؟ ریشه‌یابی علل عقب‌ماندگی در ایران، طهران: روزنه.
- سارتون، جورج (١٣٥٣ش). مقدمه تاریخ علم، المجلد الأول، ترجمه غلامحسین صدري افشار، طهران: انتشارات وزارت علوم.
- سعید، ادوارد (١٣٧٧ش). شرق‌شناسی ادوارد سعید، طهران: دفتر نشر فرهنگ اسلامی.
- الشابي، ابوالقاسم (٢٠٠٠م). ديوان الأشعار، بيروت: دار العودة.
- شوقي، احمد (١٩٨٦م). الشوقيات، بيروت: دار الكتاب العربي.
- الشهرستاني، صالح (١٣٥٧ش). شخصيات أدركتها، أخرجه الشهرستاني، عباس، قاهرة: د.ن.
- صيني، محمود إسماعيل، ناصف مصطفى عبد العزيز و مصطفى أحمد سليمان (١٩٩٢م). معجم الأمثال العربية، بيروت: مكتبة لبنان.
- الفاخوري، حنا (١٩٨٦م). الجامع في الأدب الحديث، بيروت: دار الجليل.
- قاسمي فر، هديّه و فاطمة ميرقادري (١٣٩٠ش). «بررسی تطبیقی سیمای زن در شعر جمیل صدقی زهاوی و ملک الشعرای بهار»، فصلیة مطالعات الأدب المقارن، الرقم ١٧.
- كالين، رنان (١٣٧١ش). تاريخ علم كميريج، ترجمة حسن افشار، طهران: مركز.
- ناظري، حسين و معصومه محمودآبادي (١٣٩٠ش). «آسيب‌شناسی اجتماعی از دیدگاه جميل صدقي زهاوی»، الفصلیة العلمیة — البحثیة لتقد الأدب المعاصر، الرقم ١، السنة الثانيّة.
- نراقي، حسن (١٣٨٠ش). جامعه‌شناسی خودماني، طهران: اختران.
- نيازي، شهريار، زهرا جهانگيري اصفهاني و آمنه جهانگيري اصفهاني (١٣٨٦ش). «زن در شعر جميل صدقي زهاوی»، المجله البحثیة عن النساء، الرقم ١، الدور ٥.
- يزدان‌پناه، مهرعلي (٢٠١٢م). «اللغة الفارسیة و آدابها من منظور شعراء العراق»، مجلة الجمعية العلمیة الإیراتیة للغة العربیة و آدابها، العدد ٢٢، السنة الثامنة.